الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

الهنود يستعمرون بريطانيا!

د. عبدالله المدني
اكاديمي . البحرين

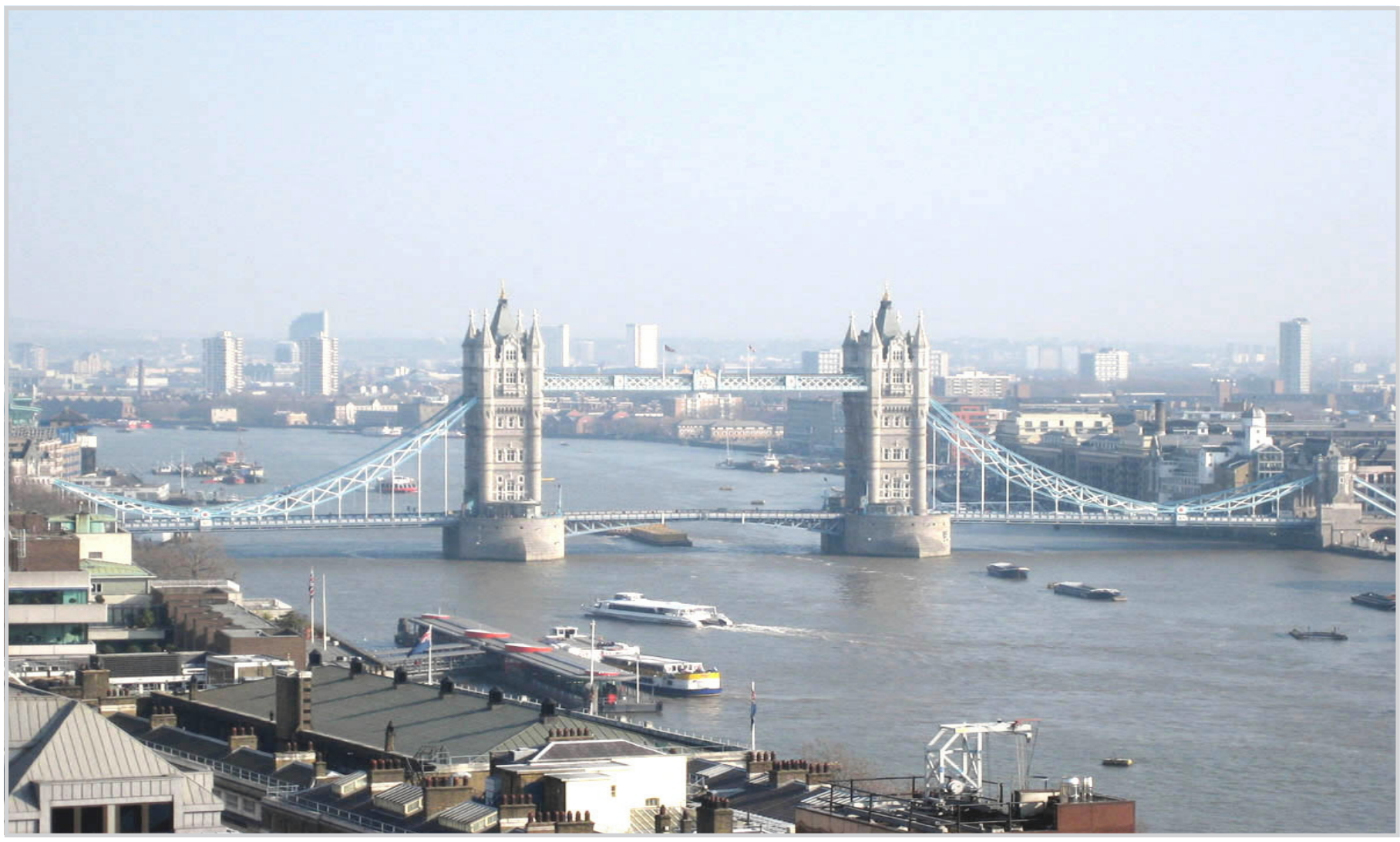

في الأخبار التي طالعتنا بها وسائل الإعلام المختلفة في أواخر مارس / آذار الماضي ، حدث مر مرور الكرام على الكثيرين ، دونما استيعاب لدروسه و مغازيه. وحدها النسخة الآسيوية من مجلة تايم الأمريكية ، أفردت له تحقيقا خاصا مطولا تحت عنوان بارز هو " الهنود يستعمرون الهند" ، وذلك من منطلق علمها بخلفيات و دلالات الحدث الذي تمثل في نجاح إمبراطورية "تاتا" الهندية العملاقة الخاصة في تملك جوهرتي الصناعة البريطانية بالكامل ، ونعني بالجوهرتين شركتي "جاغوار" و "لاندروفر" للمركبات الفاخرة ، حيث ابتاعتهما الشركة الهندية من مالكتهما الأمريكية (شركة فورد) بمبلغ يقال انه وصل إلى ٢ بليون دولار ،

علما أن فورد كانت قد ابتاعت الشركتين من الإنجليز في عامي ١٩٨٩ و٢٠٠٠ على التوالي بمبلغ ٢,٥ بليون دولار للأولى ومبلغ٢,٧ بليون دولا للثانية، وعرضتهما منذ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٧ للبيع بحثا عن الأموال من اجل سداد خسائر تعرضت لها في العام الماضي بأكثر من ١٢ بليون دولار كنتيجة لارتفاع تكاليف الإنتاج في بريطانيا وضعف الدور الأمريكي مقارنة بالجنيه الإسترليني.

ويأتي هذا الحدث بعد حدث آخر لا يقل أهمية بالنسبة للبريطانيين والهنود معا، هو نجاح الشركة الهندية ذاتها قبل فترة قليلة في امتلاك جوهرة أخرى ثمينة من جواهر الصناعة البريطانية هي المصانع التي تنتج احد أحب مشروبات الشعير إلى قلوب الإنجليز، ونعني به البيرة السمراء من ماركة " تيتلي".

ولئن كان من الطبيعي أن يحتفل الهنود بالحدث و يعتبرونه إنجازا، فان البريطانيين انقسموا إزاء الحدث: فمنهم من عبر عن غضبه لبيع ما وصفه بالأيقونة الغالية والعزيزة على قلب كل بريطاني، ومنهم من قال أن المهم هو أن تبقى الصناعتان على الأرض البريطانية كي توظف العاطلين وتشكل مصدر دخل لهم، ومنهم من قال انه مهما حدث فان العالم لن ينسى أن "الجاكوار" الذي خرج إلى الأسواق أول مرة في عام ١٩٣٥ و "لاند روفر" الذي طرح في السوق للمرة الأولى في عام ١٩٤٨ هما مركبتان بريطانيتان. وكانت هناك أيضا فئة أعربت عن أن جل أملها الآن هو أن يبقي الهنود على اسمي المركبتين كما هو أي من دون أن يصبحا ملحقين أو مسبوقين بكلمة "تاتا".

وهذه فرصة قد لا تتكرر لإلقاء بعض الأضواء على إمبراطورية "تاتا" التي منذ انطلاقتها على يد مؤسسها "جمشيد جي تاتا" في اواسط القرن التاسع عشر، التزمت بمنهج وطني، وسخرت نفسها لأهداف بناء الدولة الوطنية المستقلة على النحو الذي أراده و دعا إليه جواهر لال نهرو أحد اقطاب الاستقلال وتلميذ غاندي وأول رئيس حكومة في تاريخ الهند المستقلة. والدليل نستمده من قرار شركة "تاتا" في أوائل الخمسينيات، يوم كانت الهند قد بدأت تخطو خطواتها الأولى نحو التنمية والتصنيع والتقدم العلمي، بالتبرع بنصف ممتلكاتها من اجل خطط التعليم و البحث العلمي، وبهذا فهي استثمرت في مجال سوف يعود عليها بالنفع والخير في غضون سنوات قليلة في صورة مهندسين وباحثين وإداريين ومحاسبين وتقنيين للعمل في الحقول التي تعمل بها "تاتا". وبرغم مرور نحو ستة عقود على هذا الحدث، وتفوق الهند في مجالات حيوية عديدة، فان "تاتا" لا تزال تعتبر نفسها شريكة مع الحكومة في تحمل قدر من المسؤوليات الاجتماعية والدعائية، منطلقة من القيم التي اخطتها لنفسها منذ عهد مؤسسها الأول جمشيد جي: وهي قيم التكامل والالتزام والمسؤولية والاتحاد والتميز والأخلاق، التي تعتبر في مجملها بوصلة تاتا في العمل والإنتاج والتعامل مع عملائها و موظفيها وعمالها.

والحقيقة أن "تاتا" التي يترأسها منذ عام ١٩٩١ "راتان تاتا" وهو أحد أفراد الجيل الخامس من هذه العائلة التي تنتمي إلى الأقلية "البارسية" أي المجوس الذين هربوا من بلاد فارس إلى الهند البريطانية خوفا على حياتهم من الاضطهاد والملاحقة والتمييز، توسعت في أعمالها إلى الدرجة التي صارت معها من اكبر الشركات الهندية الخاصة على الإطلاق. كيف لا وقد باتت مؤلفة اليوم من ٩٨ مؤسسة، ولها وجود في أكثر من٨٥ بلدا، وتصدر منتجاتها وخدماتها إلى أكثر من ٨٠ دولة ويعمل فيها عدد إجمالي من الموظفين والعمال يصل إلى نحو ٢٩٠ ألفا. أما مؤسساتها الثمانية والتسعين فكل منها يختص بحقل عمل من اصل ٢٧ حقلا من أهمها: تاتا لتكنولوجيا المعلومات، وتاتا للاتصالات، وتاتا للطاقة، وتاتا للمركبات والشاحنات، وتاتا للتعدين، وتاتا لصناعة الشاي، وتاتا للفنادق والمنتجعات و تاتا للاستشارات، وتاتا للمواد الاستهلاكية، وتاتا للبناء والهندسة، وتاتا للمواد الكيمياوية.

تاريخيا بدأ المؤسس جمشيد جي شركته من الاشتغال في مجال الأقمشة والنسيج في ولاية مهاراشترا التي لا تزال عاصمتها "مومباي" قاعدة لإمبراطورية تاتا. وقد ساعدته ثقافته المتأتية من السفر والترحال وجذوره الفارسية في تطوير صناعة النسيج في الهند، خاصة مع وجود محاصيل قطن وحرير وفيرة وجيدة في الهند.

ومن هذه الصناعة انطلق إلى صناعة أخرى هي الصناعة الفندقية. إذ لاحظ الرجل احتكار الأوروبيين لها، وخلو "بومباي" من فنادق فخمة تليق بمكانتها وقتذاك كعاصمة للراج البريطاني، فقرر في حدود عام ١٩٠٣ بناء فندق "تاج محل" المعروف المواجه لكورنيش بومباي والقريب موقع احد صروح المدينة الأثرية والمعروف باسم "غيت أوف انديا". ومنذاك صارت سلسلة فنادق "تاج محل" علامة تجارية تصادفها في دول أخرى مثلها مثل هيلتون وشيراتون وماريوت وهوليداي إن.

بعد ذلك كرت سبحة الإنجازات والتوسعات، فكان لا يمر عدد من السنين، إلا و تاتا تدخل ميدانا جديدا وتنخرط فيه بحماس وثقة محققة نجاحات مشهودة.

ففي سنة ١٩٠٧ مثلا اقتحمت تاتا ميدان صناعة الفولاذ، واختارت لهذا النشاط مدينة "جمشيدبور" التي سميت باسم مؤسس الشركة "جمشيد جي"، كنوع من التخليد لذكراه.

وهكذا لم يأت عام ١٩١٢ إلا و هذا المصنع، الأول من نوعه على الإطلاق في الهند، قد بدأ في الإنتاج وبأسعار تنافسية.

أما في سنة١٩١٧ فقد كانت تاتا مع موعد لدخول صناعة المنتوجات الاستهلاكية وذلك من خلال تأسيس مصنع لصناعة الصابون ومرطبات الجلد وزيوت الشعر والطبخ.

غير أن تاتا الطموحة لم يكفها كل هذا، فالتفتت في عام ١٩٣٢ إلى مجال غير مسبوق في تاريخ الهند هو مجال الطيران، فأسست في ذلك العام "شركة تاتا ايرلاينز" التي ستتحول لاحقا إلى "شركة اير انديا" لخدمة الخطوط الداخلية.

الخطوة اللاحقة جاءت بعد خمس سنوات، أي في عام ١٩٣٩ ، حينما دشنت تاتا شركة جديدة من شركاتها تحت اسم "تاتا كيميكالز" كفرع خاص لإنتاج المواد الكيمياوية والأسمدة والمبيدات، وأردفت هذه الخطوة بخطوة أخرى مثيرة هي تأسيسها لشركة "تاتا موتورز" كفرع خاص بإنتاج المركبات والشاحنات، وهو ما قوى نفوذها وعزز شوكتها.

إن تاريخ الاستعمار وما يحفل به عادة من معارك ودماء وآلام وفواجع وظلم غالبا ما يبعد المستعمر (بفتح الميم) عن المستعمر (بكسر الميم) ويصنع بينهما سدا منيعا يحول من دون تواصلهما. غير أنه في حالة بريطانيا والهند، وكنتيجة لقدرة الهنود على العفو والتسامح ونسيان الماضي وابتعادهم عن الشعارات الطوباوية والخطط الارتجالية في بناء كيانهم المستقل، حدث العكس. فمثلما كانت إدارتهم لصراعهم مع المستعمر البريطاني متميزة عن صراعات الآخرين، كانت إدارتهم لعلاقاتهم مع المستعمر بعد رحيله أيضا متميزة ويسودها التعاون والتواصل من خلال منظومة الكومنولث. صحيح ان التاريخ الدامي للاستعمار البريطاني وعنجهيته تركا بصمات على علاقات الشعبين، نجد تجلياتها في ما يحدث من شد وجذب أثناء مباريات لعبة "الكريكيت" التي يكون احد طرفيها الهند والطرف الآخر بريطانيا. لكن الصحيح أيضا أنه في الوقت الذي لا يتردد فيه الهندي من استخدام لغة مستعمره السابق، بل والتصريح بأنها كانت أعظم هدية قدمت للهند(أنها كانت سببا في تقريب المسافات ما بين مكونات الشعب الهندي المختلفة لغة وثقافة) فان البريطاني لا مشكلة لديه في استخدام العديد من المفردات التي تسربت إلى لغته من الهندية مثل: غورو ، جانغل، بيجاما، شامبو. بل لا مشكلة لديه في اعتبار بعض الأطباق الهندية الأصيلة جزءا من المطبخ البريطاني، إضافة إلى إدراجه للشاي الهندي ضمن المكونات الأساسية لوجبة الإفطار الإنجليزية.

ويمكن تصنيف صفقة شراء الجاغوار واللاندروفر، في خانة التنافس الصامت بين الهنود ومستعمريهم السابقين من اجل التفوق والبروز واثبات الذات، و إلا فما هو الدافع وراء إنفاق "تاتا موتورز" لنحو بليوني دولار على شركتين خاسرتين، في الوقت الذي تطرح فيه ما أطلق عليه بسيارة الشعب أو سيارة "نانو" الأرخص ثمنا في العالم (٢,٥٠٠ دولار أمريكي). فشركة الجاغوار التي كان معدل عدد السيارات التي تبيعها كل سنة هو ١٣٠ ألف سيارة صارت لا تبيع اليوم سوى ٦٠ ألف سيارة كل عام، معظمها في الأسواق البعيدة عن الهند كالأسواق البريطانية والأمريكية والروسية والإيطالية.

جملة القول أن الهنود لم يختلفوا عن جيرانهم العرب في طريقة إدارة صراعهم مع المستعمر من اجل الاستقلال والتحرر فحسب، ولا في كيفية إدارة العلاقة التي نشأت بينهم وبين المستعمر بعد رحيل الأخير، وإنما أيضا في أسلوب العمل الصامت والمخطط والبعيد عن الشعارات من اجل التفوق عليه وتملك كل ما هو عزيز وغال على نفسه.

بلاغيات الأسلحة في بيروت : سلاح الاعتراض وسلاح الأسلحة وسلاح الدفاع عن السلاح !

أغرب ما قرأت من عبارات في وصف سلاح حزب الله وحلفائه الذي اكتسح بيروت الغربية العبارة التي استخدمها المحرر السياسي لصحيفة السفير اللبنانية المعروفة : سلاح الاعتراض !

ما الذي يستدل من هذه العبارة برأيكم ؟ لكن علينا قبل ذلك ان نضعها في سياقها لكي تتلون بالمعنى . لقد جاءت ضمن جملة استفهامية ، على هذا النحو : "ماذا بعد النزول بسلاح الاعتراض الى الشوارع ؟ "هاهي جملة نحوية مفيدة تتساءل عن السياسة والمستقبل . حقا فالمقالة تقول انه بعد تجربة هذا السلام الغريب في شوارع بيروت ، أما آن الاوان للسياسيين ان يتبصروا ويتفقوا ؟ حقيقة ان اهداف المقالة نافعة ، ووطنية ، وتدعو للوحدة ، ولا عجب فالسفير صحيفة رصينة ووطنية ووحدوية ولا اريد هنا التشكيك بنياتها . بيد انني احترت بعبارة سلام الاعتراض ، وقد تخيلته نوعا من الصراخ الانفعالي ، أو عوارض كونكريتية (اعتراضية) ، أو ميكروفونات صاخبة استخدمها كادحو حزب الله آذت الاذان الحساسة لاولغارشية آل الحريري الحاكمة وخدمهم من اركان الحكم ، أو لعلها تعني شيئا يقع بين العصيان المدني مثل ذلك الذي تحول الى منشأة (اعتراضية) في مركز بيروت طيلة عامين –وهو ما يحبه الجنرال عون الى حد الضحك ، وبين التلويح بالعصي والاعلام وبعض الاشارات المعيبة التي يجيدها زعران بيروت .

وليد الحيدري
كاتب

ولكن .. لا اريد ان اتذاكى على (السفير) بهذا الغباء التكتيكي ، لغة المواربات الالعبانية هذه التي اظن ان السيد المحرر السياسي خبير بها . لننهي المساخر . فأنا اعرف ما شاهدناه من اسلحة حزب الله ، والعراقي خبير بالسلاح الى حد التباهي و (طيحان الحظ) ، وأعرف ان "المحرر السياسي" شاهد سلاح حزب الله يتبختر في الشوارع القريبة من بناية السفير ، بيد ان عبارته اثارتني لانها تسيس السلاح ، بالاحرى تمنحه شخصية سياسية ، ضمن اهداف الصراع الدائر ، كما انها توفر بلاغة كلامية لاقناع مستخدم السلاح وخصمه بنتيجة سياسية متحققة على الارض نتيجة استخدام هذا السلاح من اجل استيعابها واستغلالها للوصول الى انفراج الازمة . طبعا وجد "المحرر السياسي" الوسيلة لكي يبدو معقولا بين الاطراف المتصارعة . انه محلل ، ورجل معرفة ، وبسبب أن بضاعته كلامية فهو يدرك ما وراء الصمت ، ما وراء استخدام الكلمات والاسلحة ، من لغة واهداف كأنه هيدغري حتى لو كان لا يعرف هذا ، وسيشير الى دالة موضوعية راحت تتشكل ببطء من خسارة الخاسر وانتصار المنتصر ، وفي ضرب من البداهة البراغماتية يقدم الاقتراح التالي : الان بعد ان استخدم سلاح الاعتراض كونوا واقعيين حتى لا نذهب الى استخدام سلاح الهجوم ، وتعالوا نشرب الشاي معا .

سلاح الاعتراض ! من يتأذى من سلاح الاعتراض ؟ يذكرني هذا بسلاح النقد ، ونقد السلاح . مشاكل قديمة لتشبعات العقل التحليلي السياسي من اللغة ، ومن البحث عنها ، ومن الصراع في حقلها ، ومن الاحتيال عليها في لحظة احتيالاتها ، ومن ثم القبض على جملة جاءت من تزاوج انغال ، ولدت حيوانا لاهو اسد ولا قطة ولا كلب ولا فأر ، أي أنه يشبه تماما عبارة سلاح الاعتراض!

تظلل هذه العبارة الخنثى المقالة كلها ، وهي التي توفر عتبة لقراءة المقالة باسم بداهتها كضرب من نتيجة لا تحتاج الى شك وتحليل ، براءة السياقات الصغيرة التي تبدو مثل عطسة . عنوان بالبنط الكبير يذكرنا بوجود سلاح عملا بمبدأ الخبرالواقعي ثم يغطيه على عجل عملا بأهداف سياسية . عنوان شارح لا يشرح ، ولا يتكرر في المتن الا نصفه (وماذا بعد؟ من دون عبارة سلاح الاعتراض التي ظلت فريدة في العنوان) وسيتكرر هذا السؤال مثل لازمة بلاغية من تلك التي يحبها طه حسين . وماذا بعد ؟ سؤال للسنيورة . وماذا بعد ؟ سؤال لحزب الله ، ولأمل ، ولوليد جنبلاط .. لجميع القانطين المحاصرين في بيوتهم ، ولهيئة اركان الحرب التي اكتسحت بيروت بسلاح الاعتراض !

عدالة من المحرر السياسي للسفير أن وزع عليهم السؤال نفسه . عدالة الفرص الاخيرة ، عدالة المنتصر بالله السيد سلاح الاعتراض ، عدالة المثقف وتقني الافكار المحرر السياسي للسفير الذي لا تخلو كتابته من الم ، كما لا تخلو من بشارة في تجاوز النفق المظلم للازمة اللبنانية التي طالت .

انني اخشى ان تكون هذه العبارة من قاموس حزب الله البلاغي ولم انتبه اليها ، فلعلي من دون ان آخذ بالحسبان فلسفة الاعارة في الخطابات كانت العبارة قد تسللت " بلاوعي " الى قلم المحرر السياسي للسفير . اقول هذا لانها من تلك العبارات التي تستخدمها هيئة اركان حرب انهت مهمتها توا وتسعى الى تخفيض التوتر والتهدئة . لعلي مخطئ ، فأنا مهتم بلبنان ولست لبنانيا فتفوتني دائما المراجع الحقيقية للروايات ، مثلما تفوتني بعض ألاعيب اللسان السياسي وبلاغيات هيئات اركان الاحزاب السياسية وتنسيقاتها الاعلامية مع محترفي الديباجات في مدينة تعتبر مؤسسة للاعلام العربي الحر . بيد انني من جهة اخرى منتبه الى الادب السياسي لحزب الله ، ولتفوهات زعيمه البلاغية ، فقد اعتاد استخدام عبارات لكل منها وظيفتها ومناسباتها ووضوحها وظلالها التعبيرية ، ولاسيما فيما يتعلق بالسلاح والمعاني المتعالقة به . إننا نعرف جيدا عبارة (سلاح المقاومة) التي باتت من العبارات الشائعة ، فهي معممة على الجميع ، مسيسة لكن بوجوهة محددة ، بل انها باتت من المسلمات حتى لاولئك الذين يريدون اعادة تعريفها والتأكد من وجهتها وضمها داخل تركيب اكبر ، ما اغضب المنتفعين الحقيقيين منها . إن حرب العبارات هي اكثر الحروب خداعا . وثمة هنا في العراق من يرمي صواريخ وقنابر وقذائف ملائكية على رؤوس الناس الآمنين متكلين على تعزيمات يراد منها ان تسقط على رؤوس الامريكان . وثمة من يريد الاحتفاظ بالسلاح للدفاع عن النفس فإذا به يختار ، من بين كل الاسلحة ، صواريخ ٢٠٠ ملم الآتية من بازار نجادي . اختيار السلاح يصبح مجرد تقييم شخصي في غياب الدولة او في تحجيم دورها ، وما دام الامر يعود الى النية فليعذر الزرقاوي والتعذر المليشيات كلها التي ذبحت وقتلت وشردت وسرقت واعتدت على النساء باسم الاسلام والمقاومة. من الواضح وجود حساسين من الاسلحة اكثر من اللازم . بيد ان علينا ان نعذرهم مع المعذورين الاخرين بسبب نياتهم . اليس للحساسين نيات ، اليس للطبقة الوسطى القديمة حساسية مزعجة من الاسلحة؟ اعترف انني انا منهم وأعرف المسهولة التي تصاب فيها هذه الطبقة بالرشح كلما شهر شقي سلاحه . لقد رأيتهم بأم عيني يغلقون ابواب بيوتهم امام غزوات فرسان ما قبل الدولة الذين احرقوا وقتلوا واستباحوا وهم يرفعون رؤوسهم الى الله في دعاء ورع. لو كنت ذكيا ذكاء المحرر السياسي لاكتشفت سلاحا لا يعترض ولا يحجز ، يدق الابواب بتهذيب ويطالب اصحاب الدار بالرحيل الى السويد او امريكا او هولندا حيث مئات الالوف من العراقيين واللبنانيين.

الآن ، بعد هذا الاستطراد العراقي ، أود مخلصا أن أفهم ما يجري في مقتربات سميولوجيا السلاح وبلاغياتها اللبنانية ولاسيما بعد دخول تعاريف جديدة . فحزب الله منح رتبة جديدة لبعض الاسلحة : سلاح الدفاع عن السلاح . هل هذا يوازي صاروخ ٢٠٠ ملم من صنع ايران لعام ٢٠٠٧ ؟ لا . لقد عرفنا في الازمة الاخيرة ان نظام الاتصالات الذي يراقب المطار هو واحد من اسلحة حزب الله ، بل ان الامين العام شخصن هذا السلاح بتحويله الى مسؤوليته الشخصية ، ما منحه قوة الحجة في النزاع الاخير . ولقد قيل انه سلاح السلاح ما يعني ان السلاح الذي نزل الى شوارع بيروت هو سلاح الدفاع عن سلاح الاسلحة .

أفكر بجد: هل أخطأ المحرر السياسي في التعبير ، ونسي كل هذه البلاغيات الممتعة ، أم انه كيف تعبيرا غير مستعمل بعد مستبدلا بلاغيات التخويف ببلاغيات التخفيف؟

آمل هذا والا فإني اسمح لنفسي بالاعتقاد ان صحيفة السفير تشارك في احتفالات النصر الالهي الجديدة على (العملاء والامريكان) في بيروت على طريقتها الخاصة ، ولا تريد ان يقبض عليها متلبسة !